

22-Hjemslev(L) مرجع سابق

23-أبوسعيد السيراقي، نفس المرجع، ص90

24-محمد خطايي، مرجع سابق، ص27

أ/ عائشة بومهرارز جامعة جيجل

نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص الإبداعي

لقد أصبح الحديث عن انتقال النقد الأدبي نحو آفاق واسعة وانفتاحه على عوالم معرفية مختلفة أكثر من ضرورة لاسيما في وقتنا الراهن، ويبدو أن التوسل بطرائق واستراتيجيات جديدة في التعامل مع النصوص الإبداعية ومقاربتها، يمثل خطوة متميزة تسعى لاشتقاق إمكانات وآليات مختلفة للفهم والتأويل، قصد كسر حالة الانسداد المعرفي في قراءة النص الأدبي وتحليله، لأن هذا الأخير لم يعد في الحقيقة يتطلب البحث عن قيمه الجمالية والفنية والدلالة الكامنة فيه بقدر ما أصبح يتطلب المساءلة والحوار، "باستنتاج بداهاته، أو الحفر في طبقاته، أو تفكيك أبنيته، أو كشف آلياته وإجراءاته، أو فضح مطوياته ومستنداته، أو تعرية ألعابه في إخفاء ذاته وسلطته"¹ لقد أضحى النص الأدبي والأمر كذلك، نصا مشاكسا، مراوغا، معقدا ومتشابكا، هو نص منفتح على كل شيء، على العالم والإنسان، " والنص الأدبي بقدر ما هو خطاب له خصوصياته ومميزاته البنيوية التي تميزه عن غيره من الخطابات ...هو نص منفتح على غيره من النصوص وعلى الإنسان والتاريخ والمجتمع"² هكذا كان الوعي الأدبي الجديد إذن، نتاج رؤية جديدة للخطاب والنص والمجتمع في الآن نفسه، ومن هنا كان لابد من إعادة النظر في النتاج الأدبي وإحلاله الموقع الملائم واللازم من البحث والتفكير والسؤال، وبدا الاستئناس بمختلف العلوم اللسانية والاجتماعية

والإنسانية في معالجة النصوص ومقاربتها أمرا حتميا، وأعلن الناقد عن تحرره من قيود النقد الأدبي، وخروجه من أطره الضيقة، وانفتاحه على مختلف الميادين والمجالات، وانفتح على ميادين الثقافة الممتدة والواسعة، وبهذا نشأ ما يسمى بالنقد الثقافي، والذي يمثل إحدى توجهات الفكر ما بعد الحداثي، بل إن هناك من النقاد الغربيين من أقر بتطابق المصطلح مع مصطلحات نقد ما بعد البنيوية ونقد ما بعد الحداثة، ولأن النقد الثقافي يؤمن بالتعدد والاختلاف والتواصل، فإنه يلغي الحدود والحوجز الموجودة بين مختلف العلوم والمعارف، وهذا ما جعله يتسم بصفة الشمولية والموسوعية، ومن ثمة جعله ينفتح على مجالات وميادين المعرفة المختلفة، " وامتدت مساحته حتى شملت نظرية الأدب والجمال والنقد والتفكير الفلسفي، وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي وتفسير نظريات علم العلامات ونظرية التحليل النفسي... والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجيا، ودراسات التواصل والاتصال ووسائل الإعلام"³، ونشير إلى أن استراتيجية الطرح الراهن للقراءة الثقافية، تلتقي مع اتجاهات نقدية عدة كالنقد النسوي والتفكيكية، و طروحات الماركسية والفرويدية، وطروحات يونغ، مما يساعد على تقدم الوعي بالواقع الثقافي وأساقه المتخفية تحت أقنعة سلطوية دينية وأيديولوجية وسياسية.

هكذا إذا، بدأ الحديث عن استراتيجية نقدية جديدة، تشتغل وفق منطق الاختلاف والمغايرة، يتحول النص الأدبي معها من سقفه اللغوي الجمالي إلى تجربة أو علامة ثقافية، يستمد سلطته وقوته من حضورها فيه، مما يعني، الانتقال من قراءة النص بوصفه نصا أدبيا يحمل بعض المعاني الجمالية والأدبية إلى قراءة النص بوصفه خطابا ثقافيا يتعالتى فيه الجمالي مع التاريخي والاجتماعي، لقد تحول النص من منظور النقد الثقافي والأمر كذلك، " إلى شيء آخر إلى وثيقة تعكس القيم الأيديولوجية والسياسية السائدة من ناحية، وتتخذ نقطة انطلاق لإعادة تصور تلك القيم، وإعادة بنائها من ناحية أخرى"⁴، والدعوة الحاصلة في الانتقال من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي هي في الحقيقة دعوة للانتقال من تحليل النص إلى تحليل نسقه ثم بيان وظيفته، وعندها يتم الالتفات من الجمالي والممتع، أو البحث عن الدلالة الضمنية في النص إلى قراءة النسق الذي ظل

غير منقود ولا مكشوف، بسبب توسله بالجمالي الأدبي من جهة، وبسبب إغفال النقد الأدبي عن مساءلته من جهة أخرى ، لقد ظل سؤال النسق سؤالاً مغيباً / مهمشاً / مستبعداً من طرف القارئ / الناقد ، الأمر الذي سمح لهذه الأنساق بالتغلغل في النصوص بصورة مباشرة وغير مباشرة ، وتعمل على تمرير خطاباتها ومقولاتها المختلفة تحت أقنعة متسترة، "ومشروع هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهم هذه الحيل، هي الحيلة " الجمالية"، التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدها تحكما فينا" ⁵ ، فالنص الأدبي الذي يوسم بالجمالية يخفي تحته شيئا غير الجمالية ، وهذه الأخيرة " ليست إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمّر، ويعمل الجمالي على التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع " ⁶ ومن ثمة تضمن سلطتها وهيمنتها على الأفراد ، أو قل على الجمهور الذي يندفع دوما لاحتضان واستهلاك المنتج الثقافي والنصوص الحاملة لهذا النوع من الأنساق.

ويبدو أن منظومة الأنساق الثقافية المكونة لذهنية أية أمة من الأمم، تبقى كامنة في نصوصها الأدبية الرسمية والشعبية ، فهي تمثل إحدى الحقول الحصنة لنشاط وتظهر مختلف الرواسب والمعطيات والأنساق الجاهزة ، " إنما تبرز كنشاط خطائي دؤوب ، يتجسد في الآثار الأدبية والفنية والأنساق الفلسفية ، والاجراءات القانونية والسياسية والنصوص الدينية" ⁷ .

والواقع إن للنص الأدبي استراتيجية في حجب حقيقته وذاته ، بحيث لا يعلن ولا يصرح مباشرة عما يريد التعبير عنه والوصول إليه ، بل يبقى يتستر ويتمهى بطروحاته ومنطوقاته " ومع كل خطاب لغوي هناك مضمّر نسقي يتوسل بالجازية والتعبير المجازي، ليؤسس عبرة قيمة دلالية غير واضحة المعالم ويحتاج كشفها إلى حفز في أعماق التكوين النسقي للغة وما تفعله في ذهنية مستخدميه" ⁸ ، من هنا أصبحت هذه النصوص تتطلب المساءلة والاستنطاق والنش في طبقاتها الغائرة ومناطقها الصامتة، لتبدو في نهاية المطاف، حقلا مفتوحا لما لم يقل أو يعقل،" إنما ساحة تباينات لا بيانات، ساحة لتفجير المعاني لا حصرها" ⁹، هي حقل خصب لمعطيات ورواسب وأنساق

مغلقة/مفرغة/جامدة ،منفصلة عن السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي والحضاري الذي توجد فيه، وهذا طبعا لم يمنعها من الاحتفاظ بميزاتها الخاصة والتميزة مع مرور الزمن لأنها احتلت منا ومن تفكيرنا موقع الثقة المطلقة، وفرضت نفسها وصارت تكبلنا وتحاصرنا أينما ولينا وجوهنا دون الشعور بإثم الخضوع والامثال لها، لقد امتلكت سلطة من نوع خاص،" وكل خطاب يحاول أن يمارس سلطة ما، فهذا جزء أصيل في بنية الخطاب ،أي خطاب " 10 .

ونجد هذه السلطة تتسلل عفويا في المخيال والعقل الجمعي ، وتقف بطريقة سلمية أمام نوازع ورغبات الأفراد لتضبطها وتنظمها، أو لتكبتها في كثير من الأحيان دون وعي بضغوظاتها واكراهاتها ، هو خطاب ينشأ بين السلطة والرغبة ، ويمارس نوعا من الرقابة السرية، الخفية ضد الأفراد الذين يمثلون له، " إنه يعقد علاقات محذرة مع الرغبة والسلطة باعتباره موضوعهما المباشر والفعال ، والذي يعكس حضورهما وتواجههما في تشكيلة الممارسة الخطابية الاجتماعية" 11 .

وهذه الخطابات والأنساق ، نجدها في أغلب الأحيان تتحرك على نقيض " مدلول النصوص ذاتها وعلى نقيض وعي المبدع والقارئ ، وهذا فعل نسقي وليس فعلا نصوصيا ، وليست النصوص إلا حوامل تحمل هذه الأنساق، وتمر من تحت أنف الناقد الأدبي دون كشف لها " 12 ، وعليه فقد أصبح الأمر يقتضي ضرورة العمل على خلخلة وزعزعة ثباتها وطمأنينيتها ، بوضعها موضع المساءلة والمحكمة انطلاقا من الاهتمام بقراءة النسق والكشف عن تكوينات الخطاب ليس بوصفه إنشاء للنصوص ، ولكن باعتباره صناعة للأنساق وتكريسا لسلطتها وهيمنتها في معظم الأحيان،"وقد آن الأوان لممارستنا النقدية بأن تتحرك باتجاه نقد الخطاب الإبداعي، من بوابة النقد الثقافي لتكشف ما يحمله الإبداع، لا من جماليات نسلم بها ،ولكن من قبحيات نسقية لم تكن ننتبه لها "، ليغدو خطاب التخيل في النص الإبداعي ، فضاء رحبا يسمح بممارسة عملية الفصح، والكشف، والتعرية، إنه أداة خطيرة ، لقول أشياء كثيرة بطريقة جميلة، ومن هذا المنطلق يمكن للقارئ / الناقد أن يكشف في النص عن منظومة ثقافية ، استبدادية، رجعية أصولية، طبقية ، فحولية ، وهو إذ يكشف هذه الأمور ، إنما يكشف عن عيوب ثقافية وأخلاقية تأسست بصورة

غير شرعية وتتركزت حول ذاتها ، خرجت من دائرة السؤال ودخلت دائرة المسلم به/ المنسي في ظل ثقافة ارتككت للثبات والسكون، إنها ثقافة المطابقة والمماثلة بامتياز ، وهي التي تقف دوما ضد كل محاولة للتجديد والتغيير، وعلى العموم " فمركزية تعليمنا تلقينا التلقي وتقديس الجاهز المعطى وتحرم كل محاولة للخروج عن المألوف " ¹⁴ وهذا ما جعل غط الوعي العام يمتاز بالسلبية والتفوق والارتياح لكل ما هو كائن موجود.

ويظهر أن مفهوم النسق المضمّر في النقد الثقافي يعد محوريا ومركزيا، ويمثل عنصرا أساسيا للتحويل النظري والإجرائي من النقد الأدبي إلى نقد البعد الثقافي ، فالأمر يتعلق بقراءته وكشفه وطرح أسئلة لم تطرح حوله من قبل، وسؤال الثقافي يتعامل مع النص الأدبي ، بوصفه فسحة كلامية متجددة ، ومادة للبحث في المعرفة، تكشف عن تداخل الجمالي مع الفكري وما يحمله هذا الأخير من خلفيات وسلوكيات ومعطيات ومفاهيم كمكونات للثقافة السائدة ، " ومن سنن هذا النقد أن يستفيد من مناهج التحليل المعرفية من مثل تأويل النصوص ودراسة الخلفية التاريخية، إضافة إلى إفادته من الموقف الثقافي النقدي والتحليل المؤسسي ، إن الذي يميز النقد الثقافي ما بعد بنوي، هو تركيزه الجوهرى على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوي كما هي لدى بارت ودريدا وفوكو، خاصة في مقولة دريدا أن لاشيء خارج النص" ¹⁵ ، ليكشف بهذا عن آليات الحجب والتحوير والخذاع، بمعنى آخر ، يكون الاهتمام بالبحث عن الدلالة النسقية في مقابل الدلالة اللغوية التي لم تعد كافية للكشف عن كل ما تخفيه اللغة وما تمارسه من عملية المراوغة والتعمية لتظهر غير ما تضمّره ، وسؤال الثقافة ، هو سؤال لا يخجل من طرح الأسئلة التي صايرها أهل زمانها، وسكنت عنها الأجيال اللاحقة بدعوى أنها تدخل في دائرة المحذور/ المحرم فلا شيء يمكن أن يبقى مكبوتا لا مفكرا فيه ، بل يجب أن يخضع كل شيء للمساءلة والفحص، من أجل إبداع زمنية مغايرة تتخذ من فكر الاختلاف والسؤال والحوار أساسا للوجود والتقدم، " ومتى وضعت القيم الفنية والجمالية والأخلاقية موضع تساؤل في مجتمع ما ، فمعنى ذلك أنه مقبل على تحولات تمس وجوده ووجدانه " ¹⁶ حيث يسمح هذا الفعل بحدوث انفصال رمزي عن الذات، مما يجعل

مراقبة أفعالها أمرا ممكنا وتكون الذات في مواجهة مع ذاتها وهواجسها وأوهامها ، بل إنه يريد " أن يخترق كل الخطابات الرمزية، سواء برزت داخل إطار الدائرة الرمزية المسيطرة أو انبعثت من ذلك الإيقاع اليومي للفئات الاجتماعية المهمشة " ¹⁷ وبهذه الطريقة تتم مساءلة أساسيات الذات والآخر والواقع معا وبهذا يظهر أن سؤال الثقافة يبدوا مزعجا بالنسبة لمنظومة النسق الفكري لأنه يبعث في بنيتها التوتر والقلق والتشتت ، ولعل هذا ما جعله مستبعدا ومهمشا .

ويظهر أن استراتيجية القراءة الثقافية للنص قد أعلنت عن ميلاد قارئ جديد/ مختلف، "هو قارئ يشتغل على النصوص مساءلة واستنطاقا أو حفرا وتنقيا أو تحليلا وتفكيكا" ¹⁸، إنه لا يهتم بتحقيق دلالة النص وتفسيره بقدر ما يهتم بإعادة كتابته عن طريق استحضار الغائب فيه وملء فراغاته، ويبدو أن وعي القارئ/ الناقد بالبعد الثقافي يساعده على تجاوز حدود ما يقرأ، ويجعله في حالة جدل وصراع مستمر مع ما هو كائن ومستقر في الفكر والثقافة، كما يلتفت انتباهه أثناء ممارسة طروحاته النقدية على النصوص الابداعية إلى ذاك المنسي والمهمش في المجتمع وهكذا يلعب الوعي الثقافي دورا رئيسيا في تحقيق انجازات معرفية أثناء فعل القراءة، فهو يقدم طرقا مغايرة لفهم النصوص وتأويلها، ويسمح في النهاية بإعطاء المفهوم الموضوعي والواضح للأشياء وليس الذاتي الزخرفي المخادع "ويعد النقد الثقافي طرقا اجرائية تقترب من العلمية- لقراءة النصوص على اختلاف توجهاتها وكشف جمالياتها ومعرفة مرجعياتها" ¹⁹.

وشرط الناقد الثقافي أن يتمتع بالقدرة على تحقيق انفصال رمزي عن ذاته، ومن ثمة تكون له القدرة على رؤيتها كما يجب وينبغي، وهذا الاستقلال الذاتي الذي يتمتع به الناقد الثقافي يجنبه الوقوع في مطبة التكرار والاستهلاك والتكريس غير الواعي لمختلف الأنساق المضمرة، وعندها يستطيع الكشف عن التركيب الثقافي للنص الأدبي والتركيب الثقافي للمجتمع وتمثلها داخل النص، ويرصد البنية الثقافية العميقة التي تشكلت منها رؤية المؤلف داخل الخطاب والتي غالبا ما تسعى لتكريس سلوكيات وأنماط وممارسات بطريقة ذكية.

الهوامش والإحالات:

- 1-علي حرب: المتنوع والمتنوع (نقد الذات المفكرة) ، ط 2 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، 2000، ص. 21
- 2-سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة (نحو ممارسة أدبية جديدة. ص 64
- 3-محمد سالم سعد الله: أنسنة النص (مسارات معرفية معاصرة)، ط 1 ، عالم الكتاب الحديث، عمان، 2007، ص 56 .
- 4-حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط 1 ، الدار العربية للعلوم-ناشرون بيروت، 2007، ص. 47.
- 5-المرجع نفسه، ص. 50.
- 6-عبد الله الغدامي/عبد النبي اصطياف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2004، ص. 30.
- 7-محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر العربي المعاصر، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 119 .
- 8-عبد الله الغدامي / عبد النبي اصطياف : نقد ثقافي أم نقد أدبي ، ص 28 .
- 9-إدوارد سعيد : العالم، النص، الناقد، تر: فريال جبوري، مجلة فصول، ديسمبر 1983 ، ص 187 .
- 10-نصر حامد أبو زيد : الخطاب والتأويل ، ط 1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 6
- 11-محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر العربي المعاصر، ص 198 .
- 12-عبد الله الغدامي/ عبد النبي اصطياف : نقد ثقافي أم نقد أدبي ، ص 39 .
- 13-المرجع نفسه ، ص 42 .
- 14-محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، ط؟، إفريقيا الشرق، 1997، ص 78
- 15-حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص 49 .
- 16-سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة (نحو ممارسة أدبية جديدة) ، ص 50 .
- 17-محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، ص 78 .
- 18-علي حرب: المتنوع والمتنوع (نقد الذات المفكرة)، ص. 18.
- 19-محمد سالم سعد الله: أنسنة النص (مسارات معرفية معاصرة)، ص 54.